الفصل العاشر

حالة المساواة في الطبيعة

في الفكر القديم

مثل التخيلات (ص١٨٧) الأخرى التي مضت في بناء الايمان الثوري بالأخرويات في أوربا يمكن تعقب تخيلات المساواتية والشيوعية رجوعا الى الوراء الى العالم القديم ، لقد ورثت أوروبا العصور الوسطى عن الأغريق والرومان فكرة « دولة الطبيعة » كدولة الشؤون التي يتساوى فيها كل الناس في المنزلة والغنى والتي لا يضطهدفيها أحد أو يستغل من قبل أي شخص آخر ، دولة شؤون تتميز بالعقيدة الخيرة والحب الأخوي واحيانا ايضا بالمشاركة التامة بالملكية وربما حتى في الزواج.

وفي كل من الأدبين الاغريقي واللاتيني عرضت دولة الطبيعة على انها وجدت على الأرض في عصر ذهبي فقد من زمان طويل أو « حكم ساتورن » (اله الزراعة عند الرومان) وكان صدى نص الاسطورة في مسخ أو فيد قد تكرر في الأدب التالي ليحدث تأثيرا هائلا في الفكر الشيوعي خلال العصور الوسطى ، ونقلا عن أو فيد ، في بداية التاريخ البشري ، في ذلك العصر الذهبي الأول قبل خلع ساترون على يدي جوبتير اعتاد الناس أن يغرسوا عقيدة الخير والفضيلة بشكل عفوي دون قوانين ، ولم يكن العقاب والخوف موجودين ،ولم تكن عبارات التهديد تقرأ من لوائح برونزية ثابتة..... ولم تكن الأرض نفسها مضطربة ولم تمسها المساحة ، ولم تفكها سكة اي محراث ، تعطي الأرض نفسها بمشيئتها الخاصة ... » ولكن كان لا بد أن يأتي اليوم الذي هرب فيه الخجل والحق والعقيدة

الخيرة ، وحل محلهم الخداع والاثم والتآمر والعنف والشهوة الخبيثة للتملك... والمسح والحذر الذي يعلم بخطوط الحدود الطويلة الأرض التي كانت حتى اليوم ملكية مشتركة مثل أشعة الشمس والنسيم... والآن ينتج الحديد الضار والذهب الذي هو أكثر ضررا من الحديد ، وهذه أوجدت الحرب...وأن يعيش الناس من الذهب...»

وكان ساتورن أحيانا قد صور من قبل فرجيل على أنه التجأ الى ايطاليا بعد خلعه عن العرش الأوليمبي ومن ثم اقام عصرا ذهبيا على التراب الايطالي ، ويعطي أحد معاصري أو فيد الذي كان عمله ايضا مألوفا جدا لدى علماء العصور الوسطى وهو المؤرخ غنويوس بومبيوس تروغس رواية مشرقة عن ذلك الحكم المبارك وعن العيد السنوي الذي كان يخلد به (ص ١٨٨) :

« لقد كان أول سكان ايطاليا من أهل الفطرة وكان ملكهم ساتورن كما يقال عادلا جدا ، حتى أنه تحت حكمه لم يستعبد أحد و ايضا لم يختص أحد بأي ملكية خاصة ، بل إن كل شيء كان ملكا مشتركا للجميع ودون تقسيم ، كما لو كان هناك ميراث واحد لكل الناس ، وتخليدا لهذا المثال رسم أنه خلال عيد الاله ساتورن يجب أن يعطي الجميع حقوقا متساوية حتى أن السادة والعبيد يجلسون معا في الولائم ، دون اي تمييز »

وكما بين الكاتب الساخر الهجاء لوسيان في القرن الثاني الميلادي ، أن مضمون الأسطورة يبقى أكثر توكيدا للمساواة ، وفي مخاطبته لرب العصر الذهبي أبدى لوسيان دهشته :

«اسمع الآن الشعراء يرددون أنه في الأيام القديمة ، عندما كنت ملكا كانت الأشياء مختلفة في هذا العالم ، فالأرض تحمل ثمارها للناس دون بذر أو حرث ، ولكل رجل مائدة معدة تماما ، وعليها اكثر مما يكفي ، أنهار تجري بالنبيذ واخرى بالحليب وغيرها بالعسل ، واهم من كل ذلك ، يقولون انه في ذلك الوقت كان الناس

أنفسهم من الذهب ، لم يقربهم الفقر أبدا ، في حين أننا بالكاد من الرصاص ، بل الحري إن بعضنا حتى من معدن أحط ، ومعظمنا يأكل كسرة الخبز مغمسة بعرق مرفقة ، وهو مرهق الى الأبد بالفقر والعوز والعجز ، يصرخ وا أسفاه ، وياله من قدر! هكذا نعيش نحن الفقراء ، وصدقني إن هذا كله أقل إزعاجا لنا لو اننا لا نرى الأغنياء يتمتعون بمثل هذا الوقت الطيب ، مع الكثير من الذهب والفضة في خزائنهم ، كل هذه الأثواب والعبيد والعربات والضياع و المزارع ، يملكون فيضا من كل هذه الأشياء و لا يتنازلون حتى بالقاء نظرة الينا ، نحن السواد الأعظم ، دع عنك مقاسمتنا أي شيء "

وقدمت دولة المساواة الطبيعية موضوعا للتأمل الفلسفي للأدب والشعر ، وكان تحت الستار الفلسفي أكثر منه تحت المظهر الأدبي أن أثرت الفكرة في النظرية السياسية للعصور الوسطى ، وسلفا من قبل في القرن الثالث ق.م كان الرواقيون اليونانيون يؤكدون بقوة أن جميع الناس اخوة ، وعلاوة على ذلك أن الجميع كانوا بالطبيعة احرارا ومتساوين ، ويبدو أن مؤسس الرواق القديم ، زينو نفسه قد استهل تعاليمه بوصف مجتمع عالمي مثالي يعيش الناس فيه كقطيع كبير من الغنم في مرعى واحد مشترك ، وتختفي فيه فروق العرق والولاء السياسي ، وربما المنزلة والمزاج الفردي ويتوحد فيه كل الناس في مشاركة تامة في الشعور والارادة ، وعلاوة على ذلك إن الديانة الرواقية التي استمدت بقدر كبير من علم التنجيم الكلداني وتركزت على عبادة الأجسام السماوية سرعان ما خصصت موضعا فريدا في أهميته لاله الشمس الذي كان مشهورا كمحسن كريم مبرز وفوق كل شيء عادل ، وفي الاندماج التام للضوء بالشمس (ص ١٨٩) رأى بعض الرواقيين المثل الأعلى للعدالة الاجتماعية وحتى للاشتراك في الموجودات ، وهي فكرة أصبحت بسرعة وبقيت طويلا شائعة في علم الخطابة ولغة المساواة .

ويبدو ان العملين الذين كتبا تحت تأثير رواقي قوي – ويحتمل

ان احدهما كان في القرن الثاني ق.م والثاني في القرن الثاني بعد الميلاد ـ يصوران بحيوية كبيرة نوع التخيلات المساواتية التي كان العالم القديم قد ورثها للعصور الوسطى ، واقدم الاثنين هو وصف لجزر المباركين الذي بقي فقط في الملخص الذي وضعه المؤرخ اليوناني ديودورس سيكيولاس Diodorus Siculus في مكتبته التاريخية ـ في الصورة التي حقق بها وترجم كعمل مستقل عشرات المرات خلال عصر النهضة ـ لقد كرست الجزر السبعة للشمس وسكنها رجال الشمس Heliopobtans ، وكل يوم على مدار الشهر تمر الشمس مباشرة فوق الجزر ، بنتيجة ان الأيام بقيت دائما بطول الليالي نفسها بالضبط ، والطقس جيد بصورة دائمة والفصل صيف لايتبدل تكثر فيه الثمار والأزهار .

وكان سكان كل جزيرة مقسمين الى اربع قبائل ، كل منها ٤٠٠ من الأقوياء ، وكل الرعايا لهم البنية التامة الصحية نفسها والملامح الجمالية التامة نفسها ، وكل يأخذ دوره ليؤدي كل مهمة ضرورية كصياد أو سماك ، او في خدمة الدولة ، وتستخدم كل الأراضي والماشية والعدد بالدور من قبل كل مواطن وعليه فانها ليست ملكا لأحد بشكل خاص ، والزواج غير معروف والفسق الجنسي تام ، والقبيلة مسؤولة عن تربية الأطفال ويتم هذا بطريقة تجعل الأمهات لايتعرفن على اطفالهن وغياب الوارثين بالتالي يزيل كل سبب للتنافس او التباري ، ويعطي قانون الطبيعة الذي يعمل بين الأرواح غير المشوهة سلاما وانسجاما كاملين لاينضبان ، وفي الحقيقة انه في نظام بهذا القدر من المساواة لايمكن تخيل للشقاق ، وحتى في توقعاتهم الحياتية ان رجال الشمس كلهم متساوون ، حيث يموت الكل طواعية وسلميا ، وهم في ذروة قوتهم في عمر ١٥٠ سنة .

والعمل الآخر ايضا معروف فقط من خلال مقتطفات حفظها كاتب متأخر ، واولى كليمنت الاسكندري في مجال الهجوم على

المهرطقين الغنطوسيين الذين رأهم يتكاثرون حوله اهتماما لبعض المتعصبين الذين سماهم كاربو كراتيانز والذين نسب الى مؤسسهم رسالة كتبت بالاغريقية بعنوان « في العدالة » ويبدو ان البحث الحديث يستبعد احتمال ان الغنطوسيين كانوا مسؤولين عن هذه الرسالة،وليس هناك على اي حال من سبب في الشك في ان تلك الرسالة نفسها كانت موجودة او في ان اقتباسات كليمنت منها كانت دقيقة ، ومرة اخرى يجد المرء مذهبا للمساواة المطلقة مؤيدا بمثال الشمس الخيرة المتجردة غير المتحيزة ، حيث انه طبقا لهذه الرسالة: « ان عدالة الرب مشتركة في تساويها » فالسماوات تغلف الأرض بالتساوي في كل الجوانب ، ويعرض الليل كل النجوم (ص ١٩٠) بالتساوي ، وبالقانون الالهي تشرق الشمس بالبهاء نفسه على الغني والفقير ، على الحاكم وشعبه ، على الجاهل والحكيم وعلى الرجال والنساء وعلى الحر والعبد وعلى الحيوانات من كل الأنواع الطيبة والشريرة ، ولايستطيع أحد أن يأخذ منها أكثر من نصيبه من الضوء أو يسلب جاره نصيبه منه ، وقد وهب الرب ايضا نعمة البصر للجميع على السواء دون تفرقة أو تمييز ، ليستمتع بها بالتساوي وبشكل مشترك ، وحرص على أن تقدم الشمس الغذاء لكل الحيوانات على السواء ، الغذاء الذي يتمتع به الجميع بالتساوي وبصورة مشتركة .

وبهذه الطرق اقام الله ماعناه بعدالة تسمو فوق كل تساؤل وكانت في الأصل ارادته انه يجب ان يطبق المبدأ نفسه على كل الأشياء ، على الأرض وثمارها وعلى كل الموجودات من كل نوع ، لقد خلق الله الكرم والحب وكل الثمار لمنفعة الجميع ، وفي البداية قدمت نفسها بلا ثمن لكل عصفور ، ولكل عابر سبيل

ولكن القوانين التي هي من صنع الانسان زعزعت القانون الالهي ودمرت النظام الاشتراكي الذي تبدى فيه هذا القانون ، لقد كانت هذه القوانين البشرية هي التي اوجدت التمييز بين لي ولك ، حتى ان الأشياء التي كانت بحق ملكا للجميع لم يعد التمتع بها مشتركا ، وكان هذا الانتهاك للاشتراكية والمساواة هو الذي دفع

الى السرقة والى كل الجرائم وعلاوة على ذلك قصد الله ان يتزاوج الرجال والنساء بحرية حسبما ما برحت الحيوانات تفعل ، وفي هذا المجال ايضا نجد ان المشاركة والمساواة شرعت بالعدل الالهي ودمرت من قبل بني البشر انفسهم .

وفي تضاد مع بعض اليونانيين لم يعد لدى الرواقيين الرومان ـ كما يمكن التوقع ـ اهتمام في الدعوة للمساواة ولكنهم اقروا بانه حدث ذات مرة في عصر ذهبي منذ امد طويل ان عاش الناس معا في حالة من المساواة ، وافضل نص شامل لتعاليمهم في هذا الموضوع قدمه سينكا Seneca في عدد من الفقرات والتالي مثال جيد منها : « لقد كانت اوقاتا سعيدة عندما كان سخاء الطبيعة رهن الاستخدام دون تفرقة من قبل الجميع ، قبل ان يحدث البخل والتلهف على الترف والانقسام بين الناس حيث تحولوا من الصداقة الى سرقة بعضهم بعضا .. وفي الحقيقة ليس هناك حالة للبشرية تسمح لأي انسان بان تكون له قيمة اكبر من ذلك واذا كان للرب ان يسمح لأحد ان يصنع كائنات ارضية ، وان يضع العادات للناس ، لن يحاول المرء شيئا آخر سوى ماقيل عن ذلك العصر عندما لم يكن هناك عمال تفلح الأرض ولم يكن يسمح لأحد ان يحدد او يقسم الأرض ، وعندما كان الناس يضعون كل شيء في مخزن مشترك ، وكانت الأرض تحمل كل شيء بحرية اكثر لأن أحدا لم يطالبها ، من الذي يمكن أن يكون أسعد من ذلك العرق من البشر ؟ وكل ماانتجته الطبيعة كانوا يتمتعون به بصورة مشتركة لهذا كانت الطبيعة تفي بالغرض مثلها مثل الأم والحارس لكل الناس ، وكان الكل في امان بامتلاكهم للثروة العامة ، لماذا لاأدعو هذا اغنى (ص ١٩١) عروق الانسيان ، عندما لم يكن هناك انسان فقير ؟ ولكن البخل غزا هذا الترتيب الذي هو افضل مايمكن ، وفي حين كان يرمي الى الاستيلاء على كل شيء وادعائه لنفسه انتهى بان جعل كل شيء ملكا للآخرين واختزل نفسه من غني غير محدود الى فقر مدقع ، لقد سبب الجشع الفقر وبالرغبة في كثير من الأشياء خسر كل شيء ، والآن سيكد الجشع ليسترجع مافقده ، وقد يضم

الحقول الى الحقول ، ويطرد جيرانه بـالمال او بـالقوة ، ويوسـع ضياعه حتى تصبح في حجـم اقليم ، ويدعى ان السـفر الطـويل في اراضيه تماما كامتلاكها لكن مامن مد للحدود بـلا مـدى يمـكن ان يعيدنا الى ما تخلينا عنه ، وعندمـا نفعـل كل شيء سـنملك الكثير

ولكننا ملكنا العالم كله مرة لقد كانت الأرض نفسها اكثر خصوبة عندمـا لم تفلح وكانت وفيرة بحيث تلبـي احتياجـات كل الناس ، الذين لم يخطفوها من بعضـهم بعضـا ، ولم يكن السرور بالعثور على ماجادت به الطبيعة أكثر من السعادة باطلاع الآخـرين على ماوجدوه ولم يكن لأحد ان يحصل على اكثـر أو اقـل مـن أي انسان آخر ، لقد كان الناس يتقاسمون كل شيء بصورة مشـتركة واتفاق مشترك ، ولم يكن القوي بعد قد وضـع يديه على مـن هـو أضعف ، ولم يكن البخيل بعد قد أخفى الثروة لينكر حقوق الآخرين في ضروريات الحياة ، لقـد اعتنى كل واحـد بجـاره مثلمـا اعتنى بنفسه .....» لكن ـ وهذا كان محورا لكل هذا الجدل ـ كان سينكا قانعا بان نظام المساواة القديمة لم يفقد فقط ، بل فقد بـالضرورة

فمع مرور الزمن اصبح الناس أشرارا ، وما أن حدث ذلك حتـى باتت مؤسسات مثل الملكية الخـاصة ، والحـكومات الاسـتبدادية والتفريق في المنزلة ، وحتى العبودية ليس فقط الزامية بل ضرورية ايضا ولم تكن فقط نتائج بل ايضا علاجات لفساد طبيعة الانسـان وكان في هذه الصورة وبفعل ثقل هذه الصفات ان تم تبني فكرة دولة المساواة البدائية الطبيعية من قبـل الآبـاء وادمجـت في النظـرية السياسية للكنيسة .

في فكر اباء الكنيسة الأول وفي القرون الوسطى

على الأقل مع القرن الثالث للميلاد تمثلت العقيدة المسيحية فكرة دولة المسـاواة الطبيعية في الفلسـفة الرواقية ذات التـأثير الاستثنائي ، والتي كانت قد فقدت بلاعودة ، ومع انه كان ممـكنا بالكاد الكلام عن التنظيم الاجتماعي والاقتصادي لجنة عدن ، تدبر

علماء اللاهوت الأصوليون مع ذلك أمر استخدام الاسطورة اليونانية – الرومانية ليصوروا عقيدة السقوط .

وفي مركز نظرية المجتمع هذه يقف التمييز بين دولة الطبيعة التي (ص ١٩٢) كانت مبنية على القانون الطبيعي والتي تعبر مباشرة عن المقاصد الربانية ، والدولة التقليدية التي خرجت من و أقرت بوساطة العادة،ولقد كان متفقا عليه من قبل معظم الآباء المتأخرين أن عدم المساواة والعبودية والحكومات الاستبدادية وحتى الملكية الخاصة لم يكن لها دور في المقاصد الأصلية للرب ، و ظهرت فقط كنتيجة للسقوط ومااان حدث السقوط من جانب آخر حتى بدأ تطور جعل من هذه المؤسسات أمرا لامفر منه ، والطبيعة البشرية التي فسدت بالخطيئة الأولى قد أصبحت تتطلب القيود التي لاتوجد في نظام مساواتي و لم تكن عدم المساواة في الثروة والمنزلة والقوة فقط نتائج بل علاجات ايضا للخطيئة ، والتوصيات الوحيدة التي تسمح بها مثل هذه الفكرة كانت توصيات موجهة نحو الأفراد وتتعامل فقط مع مشكلات السلوك الشخصي ان السيد يجب ان يتصرف بلطف وتعقل تجاه عبده ، فهو عزيز على الرب بقدر ماهو نفسه عزيز عليه ، وان على الغني التزام أخلاقي هو أن يعطي الصدقات طواعية ، وان الغني الذي يستخدم ثروته للأغراض الشريرة يخسر حقه فيها ، وهكذا كانت النتائج العملية المستمدة ، في حدود الأصولية ، ومن مذهب دولة المساواة الابتدائية الطبيعية ، لقد كانت نتائج هامة وقد أثرت على الحياة النصرانية بطرق عدة ولكنها لم تفرز ولم تكن ترمي ايضا الى افراز مجتمع بدون اغنياء وفقراء ، دع عنك بلا ملكية خاصة .

ومع ذلك فلقد كانت تعاليم الكنيسة فوق كل شيء هي التي خلدت فكرة ان المجتمع الطبيعي كان مجتمع مساواة ، وقد درس كثير من الآباء مفصلا وطويلا موضوع المساواة البدائية للطبيعة البشرية ، وفعلوا ذلك بشكل خاص في مناقشتهم لمؤسسة العبودية (الرق) ، فلقد أقرت الكنيسة الرق والحت على واجب طاعة

العبد وخضوعه حتى للسادة القساة ، ولكن هذا لم يمنع مثلا عالم اللاهوت صاحب النفوذ في القرن الرابع والمعروف باسم « أمبروز ياستر Ambrosiaster » من أن يذكر السادة بدورهم بان الله لم يخلق عبيدا واحرار بل خلق الناس كلهم احرارا وفي مدينة الله للقديس أوغسطين Augustine عرضت هذه الفكرة نفسها بكل وضوح ممكن بقوله :

« ان نظام الطبيعة قد سقط بمرور الزمان ، وهكذا خلق الرب الانسان لأنه قال : (لتكن لهم السيادة على السمك في البحار وعلى الطيور في الهواء ، وعلى كل شيء يزحف على الأرض) وبخلقه الانسان على صورته ، كائنا عاقلا اراد ان يجعله سيدا فقط على الكائنات غير العاقلة وليس انسانا سيدا على انسان بل انسانا سيدا على البهائم .... والسبب الأول للعبودية هو الخطيئة ، ولها خضع الانسان للانسان بقيود منزلته .... ولكن بالطبيعة التي خلق عليها الرب الانسان من قبل فلا احد عبد لالانسان ولا للخطيئة » (ص ١٩٣)

وعلى الرغم من حقيقة ان الكنيسة نفسها قد اصبحت تملك عددا كبيرا من العبيد ، فان الفكرة التي عبر عنها القديس اوغسطين بقيت الفكرة الأصولية خلال العصور الوسطى ، ولقد كان ذلك ايضا حكم محامي الاقطاعيين المدنيين ، ويمكن ان يعتبر راي المشرع الفرنسي الشهير بومانوار من القرن الثالث عشر ممثلا للراي المعتاد لدى مفكري العصور الوسطى بقوله : « مع انه يوجد الآن طبقات عديدة من الناس ، فانه صحيح ان الجميع كانوا في البداية احرارا وعلى القدر نفسه من الحرية ، حيث ان كل واحد يعرف اننا جميعا قد تحدرنا من أب واحد وأم واحدة .....»

وغريبة هي الطريقة التي اندمج بها المذهب الكاثوليكي وحافظ على فكرة ان كل الأشياء على الأرض يجب ان تكون ملكا مشتركا لكل الكائنات البشرية ، وفي القرن الثالث نجد ان العبارات الأصلية

للرواقيين تتكرر من قبل القديس سيبريان حين أوضح ان نعم الرب قد اعطيت لكل الجنس البشري ، فالنهار يلقي الضوء على الجميع والشمس تشرق فوق الجميع ، والمطر يسقط والرياح تهب من أجل الجميع ، وبهاء النجوم والقمر ملكيته مشتركة ، هكذا احسان الرب غير المتميز ، والانسان الذي يقلد عدالة الرب يجب ان يقتسم ممتلكاته مع رفاقه المسيحيين ، وبحلول النصف الثاني من القرن الرابع كسبت هذه الفكرة قبولا واسعا بين الكتاب المسيحيين لقد وجدنا القديس زينو أوف فيرونا يكرر المقارنة التي اصبحت شائعة:

«وبشكل مثالي ان كل البضائع يجب ان تكون مشتركة مثل النهار والليل ، والمطر ، والولادة والموت كذلك الأشياء التي تمنحها العدالة الالهية بالتساوي لكل الجنس البشري دون تمييز بين الأشخاص » ويبقى الأمر الأكثر اثارة هو بعض اقوال اسقف ميلانو الكبير القديس امبروز التي تجد فيها التقاليد التي صاغها من قبل سينكا اقوى تعبير :

« لقد صبت الطبيعة كل شيء لكل الناس ليكون ملكا مشتركا ، ولأن الله امر كل الأشياء ان تنتج حتى يصبح الغذاء شركة للجميع وان تكون الأرض ملكا مشاعا للجميع ، فلقد أوجدت الطبيعة بناء عليه حقا مشتركا ، ولكن الاستخدام والعادة أوجدا الحق الخاص ...» ولدعم هذه الفكرة استشهد امبروز بأفكار الرواقيين وببعض ماجاء في سفر التكوين كما لو كانا مصدرين متوائمين ومعتمدين معا ، وقال في مكان آخر « لقد كان الاله الرب يريد بشكل خاص ان تكون هذه الأرض ملكا مشتركا للجميع وان تعطي الثمار للجميع ولكن الجشع اوجد حقوق الملكية»

وهناك فقرة تمجد دولة الطبيعة الشيوعية بما في ذلك الحب الحر يمكن ان توجد في تشريعات غراتيا وهي الرسالة التي غدت النص الأساسي لدراسة الشريعة في كل الجامعات والذي يشكل القسم الأول من «مجموعة القوانين التشريعية » وقصة كيف انها وجدت فيها هي بالتأكيد الأغرب في تاريخ الأفكار ، وكان البابا كليمنت

الأول ، وهو واحد من اقدم أساقفة روما نشط في نحو نهاية القرن الأول،قد غدا بعد موته يعد بمثابة تلميذ للقديس بطرس نفسه (ص ١٩٤)والمقام الذي اضفناه هذا على اسمه نجم بقدر كبير عن الأدب الأبوغرافاوي (غير الشرعي)الذي نسب اليه ، واحد هذه الأعمال زعم انها رسائل كتبت من قبل كليمنت الى القديس جيمس وصفت اسفاره مع القديس بطرس وتبلغ الذروة في "تعرفه" على والديه وأخوته الذين انفصل عنهم منذ طفولته ويحتمل انها كتبت في سورية حوالي ٢٦٥ ميلادية ، واعطي هذا العمل صورته الحالية بعد نحو قرن ، وفي تعارف كليمنت كما هو بين ايدينا يظهر أبو كليمنت وثنيا يتناقش مع بطرس وكليمنث ثم يدخلانه في النهاية في المسيحية ، وفي مجرى الجدل اقتبس الوالد الآراء التالية ، التي عزاها الى « فلاسفة يونانيين» وهي بدرجة كافية من الصحة ، لو انه فقط لم يحاول في حينه أن ينسبها لافلاطون

«ان استعمال كل الأشياء الموجودة في هذا العالم كان يجب أن يكون مشتركا بين كل الناس ولكن بفعل عدم العدل يقول احد الرجال ان هذا له ، ويقول آخر ان ذلك له ، وهكذا وجد الانقسام بين الناس الفانيين وباختصار ، ان رجلا يونانيا بالغ الحكمة يعرف ماهية هذه الأمور يقول أن كل شيء يجب أن يبقى مشتركا بين الاصدقاء ، وبلا ريب بين كل الاشياء الأزواج مشمولون ، وهو يقول ايضا كما أن الهواء لايمكن تقسيمه ولا بهاء الشمس ، هكذا الأشياء الأخرى التي يعطيها هذا العالم يجب ان تكون ملكيتها مشتركة بين الجميع ويجب عدم تقسيمها بل يجب أن تبقى ملكا مشتركا »٠

وبعد حوالي خمسة قرون أحرزت هذه الفقرة أهمية جديدة كاملة ففي نحو ٨٥٠ م كان الراهب الفرنسي المعروف باسم إيزيدور الزائف (لأنه عزا أعماله الى ايزيدور ، رئيس أساقفة اشبيلية) كان يصدر فتاوى بابوية زائفة وشرائع للمجموعة الشهيرة المعروفة الآن باسم الفتاوى الزائفة ، وتفتتح المجموعة بخمسة « رسائل

انجيلية للبابا كليمنت » وكلها ابوغرافاوية وثلاثة منها زورها ايزيدور الزائف نفسه،وفي الرسالة الانجيلية الخامسة الموجهة الى القديس جيمس ومسيحيي القدس ضمنها ايزيدور الزائف الفقرة المقتبسة أعلاه حيث لم تعد على أي حال قولا لو ثني بل تعبيرا عن افكار البابا كليمنت نفسه وجعل البابا يعزز الجدل باقتباس المادة الرابعة حول المجتمع المسيحي في القدس :

« وكانت جموعهم التي آمنت على قلب واحد وروح واحدة : ولم يقل اي منهم ان شيئا البتة مما بحوزته كان ملكا له بل إنهم كانوا يملكون كل شيء بصورة مشتركة. . . .ولم يكن هناك أيضا شيء ناقص بينهم : اذ بقدر ما كان هناك مالكون كثيرون للأراضي والبيوت فانها كانت تباع وتجلب أثمان الأشياء المباعة وتوضع عند أقدام الحواريين ، وكان التوزيع لكل انسان يجري وفق حاجته »

وكان الجدل في هذه الصورة هجينا نصف مسيحي ونصف رواقي عندما جوبه من قبل مؤسس (ص ١٩٥) علم القانون وعندما شرع غرايتان في نحو ١١٥٠ في وضع مجموعته العظيمة لم يتساءل مطلقا ـ أكثر مما فعل معاصروه ـ حول أصالة فتاوى ايزيدور الزائف ، وكانت الرسالة الخامسة لكليمنت بتأكيدها الغريب للشيوعية الفوضوية ، قد وضعت ضمن مجموعة الفتاوى البابوية والتشريعات Decretum وبذلك أحرزت نفوذا كان عليها ان تحتفظ به حتى القرن السادس عشر عندما ضعفت الثقة بها مع بقية الفتاوى الزائفة ٠

وصحيح ان غرايتان ربط بالوثيقة بعض الحواشي التي مالت الى حصر مجالها إلا انه في مكان آخر من مجموعة الفتاوى جعل مناقشتها (سوى في شأن الحب الحر) بشكل عام وبلا تحفظ منسوبة إليه، وفي أواخر العصور الوسطى أصبح شائعا بين المشرعين والدارسين أنه في الحالة الأولى من المجتمع، والتي كانت أيضا افضل حالة ، لم يكن هناك شيء يقال له ملكية خاصة ، لأن كل الأشياء هي ملك لكل الناس ٠

وفي حوالي ١٢٧٠ قدمت دولة المساواة الطبيعية لأول مرة منذ القدم في عمل ادبي •فقد عالج ا لأمر جين دي موين وهو رجل من العامة ذا عقل سؤول فاحص ، وكان يعيش في وسط الحي اللاتيني في باريس، وكان متأثرا بعمق بالمناقشات الجارية في الجامعة، وكان متضلعا جدا ايضا في الأدب اللاتيني فقد عالج الموضوع مطولا في شعره الطويل« مغامرة الوردة » ولم يحظ عمل عامي آخر في كل ادب العصور الوسطى بمثل شعبيته ، حيث مازالت نحو« ٢٠٠ » نسخة مخطوطة بالفرنسية باقية • وكانت هناك ترجمات عديدة وكان من خلال مغامرة الوردة أن نظرية إجتماعية كانت حتى حينه مألوفة الى حد كبير عند علماء الاكليروس فقط قد أصبحت في متناول أعداد كبيرة من العامة ، ولقد كان وصف جين دي موين للعصر الذهبي والتدهور التالي منذ حينه مقالة اجتماعية جادة و شعبية، وكانت تجربة متقدمة نحو خمسة قرون على القسم الثاني من مقالات روسو في اللامساواة ، ومثل ذلك العمل ، كان في حد ذاته وثيقة عظيمة الأهمية لطلاب الأساطير الاجتماعية، وكتب الشاعر على النحو التالي :

« حدث ذات مرة في أيام أبائنا الأوائل وأمهاتنا، كما تشهد كتابات القدماء أن كان الناس يحبون بعضهم بعضا حبا رقيقا صادقا ، لايصدر عن غاية وشهوة للكسب، وسادت الطيبة العالم وفي تلك الأيام كانت الأذواق بسيطة وكان الناس يتغذون بالثمار والبندق والأعشاب ، وكانوا يشربون الماء فقط ، ويلبسون جلود الحيوانات، ولايعرفون شيئا عن الزراعة، ويعيشون في الكهوف، ومع ذلك لم تكن هناك صعوبات ، لأن الأرض كانت تعطيهم طواعية كل طعام يحتاجونه وكان العشاق يتعانقون على فرش من الأزهار تحت ستائر من ورق الشجر(بالنسبة لهذا الكاتب كان الحب الحر جزءا هاما من النعيم البدائي)، وهناك رقصوا ولهوا في كسل حلو

أناس بسطاء هادئون لايبالون بشيء إلا العيش في حبور

(ص ١٩٦)•

وبكل صداقة مع بعضهم بعضا ، ولم يكن هناك بعد ملك أو أمير يخطف كالمجرمين مايخص الاخرين ، لقد كان الكل متساوين ، ولم تكن عندهم ملكيات خاصة بهم وكانوا يعرفون تماما حكمة أن الحب والسلطة لايقيمان بعد معا في صحبة ... وهكذا ياصديقي حافظ القدماء على صحبة بعضهم بعضا متحررين من أي ارتباط أو قيد في سلام ، وبلطف ، ولم يسلموا حريتهم بكل الذهب الذي في بلاد العرب أو فريجيا،ولسوء الحظ بلغت هذه الحالة من الشؤون السعيدة نهايتها بظهور جيش الشرور والخداع والتفاخر والاشتهاء الجشع والحسد والبقية ، وكان عملها الأول إيجاد الفقر وإطلاق ابنه السلب حرا على الأرض ، التي لم تكن تعرف حتى الان شيئا عنها . بعد ذلك :

غزت هذه الشياطين بالغضب المجنون ، والحسد لرؤية الكائنات البشرية سعيدة ، الأرض كلها وبذرت فيها الخلاف ، والخداع ، والنزاع والتقاضي ، والشجار ، والسباب ، والحروب ، والافتراء والكراهية والحقد ، ولأنهم فتنوا بالذهب ، فإنهم نهبوا الأرض وانتزعوا من أحشائها الكنوز الخبيئة ، والمعادن ، والأحجار الكريمة ، لأن البخل والجشع واشتهاء مالدى غيرنا قد أودع في القلوب البشرية الرغبة في إحراز الثروة ، إن الاشتهاء يجلب المال والجشع يخفيه ، إنها مخلوقة شقية ، وهي لن تنفقه أبدا ، وإنما ستتركه لورثتها وللوصي ليديره ويقيم الحراسة عليه إذا لم يحل به بلية قبل ذلك .

وما أن أصبح الجنس البشري فريسة لتلك العصابة ، تخلى عن طريقته الأولى في الحياة ، ولم يتوقف الناس مطلقا عن أعمال الشر ، لقد أصبحوا زائفين وبدأوا يغشون ، لقد التصقوا بممتلكاتهم وأغلقوا عليها بإحكام وقسموا الأرض ذاتها وبذلك رسموا الحدود ، وكثيرا ما تقاتلوا وهم يضعون هذه الحدود واختطفوا كل ما أمكنهم من بعضهم بعضا ، وحصل الأقوى على أكبر الحصص ....

وفي النهاية أصبحت الفوضى غير محتملة حتى أن الناس اضطروا إلى انتخاب شخص ما ليستعيد ويحفظ النظام ، لقد اختاروا الفلاح الكبير ، الأضخم عظاما ، والأكثر طولا وقوة الذي أمكنهم العثور عليه وجعلوه أميرا وسيدا ولكنه كان في حاجة إلى المساعدة وهكذا وجدت القروض والضرائب للدفع لجهاز القسر ، وكان هذا بداية السلطة الملكية ، وصكت العملة ، وصنعت الأسلحة ، وفي الوقت نفسه حصن الناس المدن والقلاع وبنوا القصور العظيمة المغطاة بالنحت ، لأن من اقتنوا هذه الثروات كانوا خائفين جدا من أن تؤخذ منهم سواء بالسرقة أو بالقوة ، ثم أصبحوا موضع الشفقة أكثر ، أولئك الناس غير السعداء لأنهم ماعادوا يعرفون الأمن مرة أخرى أبدا منذ ذلك اليوم ، الذي فيه بدافع الجشع أخذوا لأنفسهم ماكان من قبل مشاعا للجميع مثل ما عليه الهواء والشمس»

هكذا كانت مثل الشيوعية والمساواة التي كانت معروفة لدى عدد كبير جدا من الأرواح المفكرة في أوروبا العصور الوسطى . ولايمكن القول إن (ص ١٩٧) أي محاولة على الاطلاق لم تبذل لترجمتها إلى واقع ، لقد حافظت الكنيسة بثبات على أن الحياة المشتركة في الفقر الطوعي كانت « الطريقة الأكثر كمالا » ، مصرين فقط على انه في العالم الفاسد الذي عمل في ظل عقابيل السقوط كان هذا مثالا يمكن ويجب أن يحتذى فقط من قبل الصفوة ، وبين الاكليروس وجد هذا الموقف تعبيرا منظما في مراتب الرهبان وأخوة الرهبنة ، لقد كان موقفا اجتذب أيضا العديد من العامة ، خاصة عندما انتعشت التجارة ، وظهرت الثروات الجديدة وتنامت حضارة الحياة المستقرة ومن القرن الحادي عشر وما بعده كانت توجد في الأجزاء الأكثر تطورا وازدحاما في أوربة تكتلات من العامة كانت تعيش في جماعات شبه رهبانية ، وتحتفظ بكل ممتلكاتها بصورة مشتركة ، أحيانا بموافقة وأحيانا بدون موافقة الكنيسة ، وبالنسبة لمثل هذه المجتمعات كان النموذج يتوفر في الوصف الوارد في المادة الرابعة للمجتمع المسيحي الأول في القدس ، وهذا المثال الذي كما رأينا قد ذكر من قبل ايزيدور الزائف في رسائل كليمنت الزائفة قد بلغ مقاما

عظيما ، لأنه لم يقدر في أي مكان ، إلى أي مدى سمح القديس لوقا لخياله أن يهيمن على إدراكه للحقائق التاريخية .

ولكن تقليد هذا النص الخيالي للكنيسة الابتدائية ، لم يكن له أن يسترد بعد ، أو حتى يحاول استرداد ، العصر الذهبي المفقود لكل البشرية الذي صور للعالم القديم من قبل سينكا، ولأوروبا العصور الوسطى من قبل جين دي مين ، وحتى طوائف المهرطقين التي ازدهرت منذ القرن الثاني عشر وما بعده كانت بشكل عام اقل اهتماما « بالمساواة » الاجتماعية والاقتصادية مما كان أحيانا يؤكد ، فلا الكاثاريه ولا الوالدنسيان ، مثلا أظهروا اهتماما كبيرا ، بالأمر ، وحتى نهاية القرن الرابع عشر تقريبا يبدو أن عددا قليلا من الطوائف الغامضة فقط مثل بعض أتباع الروح الحرة ، قد حاول استعادة دولة المساواة الطبيعية من أعماق الماضي وعكسها على المستقبل ولكن مهما كانت قلة من كانوا يقولون ذلك فإن هذه المحاولة لاعادة إيجاد العصر الذهبي لم تكن بلا أهمية وقد أفرزت مذهبا أصبح أسطورة ثورية ، حالما قدم إلى الفقراء المحتاجين واندمج مع التخيلات الشعبية المتعلقة بالاخرويات .